محاضرة:

الطبقات

1-مفهوم الطبقة:

كلمة "طبقة" متعددة المعاني والدلالات، فبالعودة إلى المعاجم العربية نعثر على معان عديدة لهذه الكلمة، وهي في مجملها تدل على المساواة والموافقة، فقد ورد في لسان العرب:" وطبق كل شيء: ما ساواه، وتطابق الشيئان: تساويا. والمطابقة: الموافقة.

وعند الزمخشري:" والناس طبقات: منازل ودرجات بعضها أرفع من بعض".

ومن المعاني التي تدل عليها كلمة "طبقة" معنى الحال، فلقد أطلقوا على أحوال الناس كلمة "طبقات" وبالتالي أصبحت كل حال مفردة "طبقة" فقالوا: "فلان من الدنيا على طبقات شتّى" أي أنه ذو أحوال ومذاهب مختلفة.

وقد ذهب محمود شاكر في مقدمة كتاب " طبقات فحول الشعراء" إلى أن كلمة "طبقة" موجودة في كلام العرب منذ القديم، وقدمها قِدم اللغة ذاتها، ولكنها تطورت مع الزمن وأخذت مدلولات متعددة في حياة العرب. ولكن صار لهذه الكلمة مجاز آخر عند الكتاب والمؤلفين حين جاء عصر التدوين، فتناوله المؤلفون والكتاب في مختلف العوم والفنون إلى أن وصلنا لهذا المعنى المعروف المتداول الذي يدل على الدرجة، والمساواة والمشابهة.

2-نشأة فكرة الطبقات عند اللغويين:

يعود الفضل الأول في دخول فكرة "الطبقات" ميدان الأدب إلى اللغويين الذين مهدوا السبيل لهذه الفكرة حتى استوت ونضجت، فتناولها نقاد الأدب والشعر فيما بعد وتعمقوا فيها،

وأضفوا عليها من تصوراتهم وعلمهم ما أوصلها إلى الشكل الذي نراه عند ابن سلام ومن ألّفوا بعده في الطبقات.

لقد قام اللغويون سواء أكانوا من مدرسة البصرة أو الكوفة بجمع مواد اللغة العربية من الرواة وذلك في حدود مطلع القرن الثاني، حين استقرت أمور الدولة، وأمن العرب في أمصارهم، وراجعوا تراثهم وآدابهم، فلم يجدوا شيئا مدونا من هذا التراث، وفاتهم شيء كثير منه بوفاة من كانوا يحملونه في صدورهم، مما اضطرهم إلى تدوين ما بقي منه كي يحفظوه من الضياع، ولأن الشعر العربي هو ديوان العرب وسجل حضارتهم، فإن فترة انشغالهم عنه بعد مجيء الإسلام لم تطل، فعادوا إليه كما كانوا بعد أن توطدت أمورهم. ومن هنا بدأ عصر التدوين.

أخذ العلماء يجمعون الشعر ويدونونه. وأبرز هؤلاء العلماء الأصمعي، وخلف الأحمر وأبو زيد الأنصاري، ومحمد بن سلام الجمّحي، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبو عمرو الشيباني، وحماد الراوية، والمفضل الضبي، وابن الأعرابي. ولم يقتصر الأمر على جمع الشعر بل تسجيل آراء وأحكام نقدية، بخصوص الشعراء، وكذا المفاضلة بينهم وترتيبهم بحسب الجودة، والبراعة الشعرية وهنا ظهرت فكرة الطبقات.

3-ابن سلاّم الجمحي وكتاب الطبقات:

طبقات فحول الشعراء لابن سلاّم هو أقدم كتاب وصل إلينا في النقد العربي، وصاحبه أبو عبد الله محمد بن سلاّم الجمحي البصري، مولى قدامة بن مظعون الجمّحي. عاش في البصرة بين علماء اللغة ونحاتها ورواة أدبها وأخبارها. ولهذا كانت له معارف واسعة في اللغة والأدب والنحو والأخبار. وكتب التراجم تنعته بأنه أحد الأخباريين والرّواة، وأنه كان من أعيان أهل الأدب. كما تصفه بأنه كان له علم بالشعر والأخبار.

وقد تميّز على علماء جيله بأنه أول من قام بينهم بمحاولة جادّة، تمثلت في جمع آراء سابقيه ومعاصريه في النقد العربي وتنظيمها تنظيما علميا في كتاب طبقات الشعراء. وبهذا خطا بالنقد خطوة جديدة، وكل ما اهتدى إليه بنفسه، أو اكتسبه من معارف السابقين والمعاصرين في

الأدب والنقد قد نظر فيه بعين الفاحص المدقق، وصبغه بصبغة البحث العلمي، ثم أودعه في النهاية كتابه "طبقات فحول الشعراء" الذي يُعَدُّ خلاصة ما قيل إلى عهده في أشعار الجاهليين والإسلاميين.

4-منهج ابن سلاّم في الطبقات:

قسّم ابن سلاّم كتابه خمسة أقسام هي: المقدمة، فطبقات الشعراء الجاهليين، فشعراء المراثي، فشعراء القرى العربية، فطبقات الشعراء الإسلاميين.

عرض في المقدمة لبعض قضايا النقد والأدب، ونشأة بعض علوم العربية، ووضع في تقسيمه الشعراء بعض الأسس العلمية في الدراسات الأدبية والنقدية.

ويبرز المنهج التاريخي في الكتاب بتقسيم ابن سلام الشعراء حسب أزمانهم إلى جاهليين ومخضرمين وإسلاميين، وأثر ذلك في بيان مدى تطور الشعر والنقد، ومدى ما أخذ اللاحق من السابق في ذلك أو أضاف إليه.

ثم يظهر إدراك ابن سلاّم للجوانب التي يحدث فيها التفاوت بين الشعراء من خلال تقسيمه لشعراء كل زمن، أو عصر إلى طبقات بحسب المنزلة الأدبية، أو كثرة الإنتاج الشعري، أو جودته، أو القدرة على التصرف في فنون الشعر.

ولا يغفل ابن سلاّم عن أثر البيئة في الشعر، فيعقد فصلا خاصا بشعراء القرى العربية، أي شعراء مكة، وشعراء المدينة، وشعراء الطائف، وشعراء البحرين، ويقرّر أن البيئات الجاهلية ليست كلّها سواء في إنتاج الشعر.

ويتّبع ابن سلام سبيلا محدّدا في حديثه عن الشعراء، وذلك بإيراد طرف من حياة الشاعر وشعره، مع الإلمام ما أمكن بكل ما قيل قديما وحديثا عنه وعن شعره، مع ذكر رأيه الشخصي في شعره.

5-الفكر النقدية في كتاب طبقات فحول الشعراء:

طرح الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء العديد من القضايا التي تخص الشعر، وناقشها بحسه، وذوقه النقدي، معتمدا على ثقافته، وخبرته في ميدان الأدب، والآراء العلماء، وأهل الرأي في ساحة الشعر. ومن أبرز القضايا التي توقف عندها ابن سلاّم:

5-1-وضع وانتحال الشعر: رأى ابن سلاّم أنّ ثمة شعرا موضوعا لفّقه الرواة ونسبوه إلى بعض الشعراء ويقول في ذلك:" في الشعر مصنوع مفتعل موضوع لا خير فيه، ولا حجة في عربية، ولا أدب يُستفادُ، ولا معنى يُستخرج، ولا مثل يُضرب، ولا مديح رائعٌ، ولا هجاء مقذِعٌ، ولا فخر مُعجب، ولا نسيبٌ مستطرف".

ويهاجم ابن سلاّم محمد بن إسحاق بن يسار راوي السّيرة النبوية، ويوضح أنه أفسد الشعر بما أضافه إليه من شعر مصنوع مفتعل.

وبخصوص تمييز الشعر الموضوع رأى ابن سلام أن أهل البادية، والعلماء أقدر الناس على فحص الشعر، بما يمتلكون من خبرة في هذا المجال.

5-2-ثقافة الناقد وطبيعتها: (الناقد المتخصص) رأى ابن سلاّم أنّ أمر الأحكام الجمالية لا ينبغي إسناده إلى غير أهله، ابتغاء أن تكون الأحكام صحيحة، وينزّل الشعراء منازلهم التي هم عليها حقيقة. وعنده أنّ شأن العالم بالشعر كشأن الصّراف الخبير بالنقود. ويؤكد ابن سلاّم أن ثقافة العالم بالشعر أو الناقد ضرب خاص من الثقافة صعب تلمّسه، ولا يدري ماهيّته إلاّ أهله.

5-3-أوّلية الشعر العربي: اهتم ابن سلاّم بالحديث عن بدايات الشعر العربي، ورأيه في هذا أن العربي كان يقول البيت أو الأبيات القليلة ليعبّر بها عن حاجته، ولم يأخذ النّظم صورة القصيدة الطويلة إلاّ في وقت متأخر عندما ظهر من يكافئ على المديح. يقول:" ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وإنّما قصّدت القصائد وطوّل الشعر على عهد عبد المطّلب، وهاشم بن عبد مناف". أي أن تقصيد القصائد كان على زمن عبد المطّلب وهاشم بن عبد مناف بما قدّما للشعراء مقابل مدحهم.

ويقدّم ابن سلاّم تصوّرا مختلفا عن بداية الشعر في موضع آخر من الكتاب، إذ جعل الرّثاء الذي نشأ عن الوقائع والثارات والدّماء، والحروب مبعثا لتقصيد القصيد وإطالة الشعر فيقول:"

وكان أوّل من قصّد القصائد وذكر الوقائع، المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وائل قتلته بنو شيبان". وتبدو آراء ابن سلام بخصوص أولية الشعر العربي على قدر من الاضطراب. فهي في موضع على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف، وفي موضع آخر زمن المهلهل بن ربيعة التّغلبي.

5-4-انتقال الشعر في القبائل: انتبه ابن سلاّم إلى قضية تتصل بتاريخ الشعر العربي وهي أنّ هذا الشعر قد تنقّل في قبائل العرب، فمن ربيعة انتقل إلى قيس، ومن قيس إلى تميم. وانتقال الشعر على هذا النحو يعني انتقال السيادة الفنية من قبيلة إلى أخرى، ومن جهة أخرى مَدْرَسِيَّة الشعر العربي، وتتلمذ شعراء القبيلة بعضهم على بعض.

5-5-مدارس النقد واللغة عند العرب: ذكر ابن سلاّم بعض علماء العرب الذين حفظوا الأشعار وتدارسوها، وشرحوا غريبها وبيّنوا قواعدها النحوية، كما وصف بعض البيئات التي حفظت للعربية صفاءها وضبطها، ودقّتها. ويقول في ذلك:" وكان لأهل البصرة في العربية قُدْمة، وبالنّحو ولغات العرب والغريب عناية، وكان أول من أسّس العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها أبو الأسود الدُّؤَليّ، وهو ظالم بن عمرو بن سفيان وكان ممن أخذ عنه يحيى بن يعمر، وهو رجل من عدوان، وعداده في بني ليث، وكان مأمونا عالما، يروى عنه الفقه...ثم كان بعدهم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرميّ، وكان أوّل من بعج النحو، ومدّ القياس والعلل. وكان معه أبو عمرو بن العلاء، ...وكان ابن أبي إسحاق أشدّ تجويدا للقياس، وكان أبو عمرو أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها".

ويقول ابن سلاّم في موضع آخر:" ثم كان الخليلُ بن أحمد، وهو رجل من الأزد، من فراهيد...فاستخرج من العروض، واستنبط منه ومن علله مالم يستخرج أحد، ولم يسبقه إلى مثله سابق من العلماء كلّهم".

كما أشار ابن سلاّم لجهود بعض العلماء في رواية الشعر ونقده كحديثه عن خلف بن حيّان المعروف بخلف الأحمر، وقد رأى ابن سلاّم أن هؤلاء العلماء هم الذين خاضوا في قضايا الشعر وتدارسوا تفاصيلهم ولهم يرجع الناس في الإلمام بالأحكام النقدية المتعلقة بالشعر والشعراء.

5-6-مرجعية الأحكام النقدية: بيّن ابن سلاّم أن هناك عددا من المراجع التي يعتمد عليها في الأحكام النقدية على أشعار الشعراء. وذكر منها: عامة الناس أو الجمهور، ورواة الشعر، وأهل العلم، والعشائر العربية، وآراء السّلف في الشعراء. ووضّح ابن سلاّم أنّ أهل زمانه لا يثقون إلاّ بالمرجع الأخير أي آراء المتقدّمين.

6-أسس ومعايير الطبقات:

بالعودة إلى كتاب طبقات فحول الشعراء يتضح أنّ ابن سلاّم الجمحي اعتمد على مجموعة من الأسس الفنية في اختياره للفحول من الشعراء، وفي ترتيبهم وانزالهم منازلهم في طبقات الكتاب، وأبرز هذه المعايير هي:

6-1-الابتكار والجِدَّة في الموضوعات والأساليب: أي أن يأتي الشاعر بموضوعات جديدة وطرق تعبيرية لم يسبقه إليها غيره من الشعراء، وعلى هذا الأساس قدّم غير قليل من النقاد امرأ القيس. وقد استند ابن سلاّم لتلك الآراء في اختياره لأمرئ القيس على رأس الطبقات ويقول في ذلك: "فاحتجّ لامرئ القيس من يقدّمه قال: ما قال ما لم يقولوا، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنتها العرب، واتّبعه فيها الشعراء: استيقاف صحبه، والتبكاء في الديار، ورقة النسيب، وقرب المأخذ، وشبه النساء بالظّباء والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصي، وقيد الأوابد، وأجاد في التشبيه". فاستحق الصدارة بذلك.

6-2-إجادة الوصف وقرب التشبيه: براعة الشاعر في الوصف والتشبيه من أسس الإجادة عند ابن سلاّم الجمحي فامرؤ القيس مثلا جيّد التشبيهات، ومن ثم يقول ابن سلاّم:" واستحسن الناس من تشبيه امرئ القيس:

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رَطْبا ويابساً لَدى وَكْرِها العُنّاب والحَشَفُ البالي

6-3-الحَصَافَة: تعني الحَصافَة جودة الرأي وإحكامه وسداده، ورجاحة العقل. وتعني في الشعر أن تكون معانيه حكيمة دالة. وقد رأى بعضهم شيئا من هذا في شعر زهير فقدّمه لهذا السبب. يقول ابن سلاّم:" وقال أهل النظر: كان زهير أحصفهم شعرا، وأبعدهم من سخف".

6-4-النظم على الأبحر المختلفة: يستحسن ابن سلاّم النظم على الأبحر المختلفة، وهو ما يدل على قدرة الشاعر في النظم على الأوزان المتنوعة، وهو ما يوفر ثراء موسيقيا لا يتوافر لشاعر في البحر الواحد، كما يوفّر له القدرة على معالجة أغراض كثيرة.

6-5-النظم في الأغراض المختلفة: يفضّل ابن سلاّم شاعر الأغراض المختلفة على شاعر الغرض الواحد. وهو أساس فني يشير إلى قدرة الشاعر، وغزارة شعره وهو ما جعل ابن سلاّم يقدّم جرير على الفرزدق في هذه الناحية ويقول:" سألت بشّارا العقيلي عن الثلاثة، فقال: لم يكن الأخطل مثلهما، ولكنّ ربيعة تعصّبت له وأفرطت فيه. فقلت: فجرير والفرزدق؟ قال: كان جرير يُحسن ضروبا من الشعر لا يحسنها الفرزدق. وفضّل جريرا عليه".

6-6-البراعة في أغراض خاصة: لقد ميّز النقاد القدامى أربعة أغراض شعرية وعدّوا النظم فيها مجتمعة دليل على براعة الشاعر. يقول ابن سلاّم:" وسألت الأُسيديّ أخا بني سلامة عن جرير والفرزدق فقال: بيوت الشعر أربعة: فخر، ومديح، ونسيب، وهجاء وفي كلّها غُلَّب جرير".

6-7-كثرة القصائد الطويلة الجيّدة: عدّ ابن سلاّم كثرة القصائد الطويلة أساسا فنيا من أسس الجودة، والبراعة ويظهر ذلك في موقفه من الأسود بن يَعْفُر النهشليّ حيث قال:" وكان الأسودُ شاعرا فحلا، وكان يكثرُ التّنقّل في العرب يحاورهم، فيذمّ ويحمد، وله في ذلك أشعار، وله واحدة رائعة طويلة، لاحقة بأجود الشعر، لو كان شفعها بمثلها قدّمناه على مرتبته".

6-8-القصيدة الواحدة المتفوقة: تعود فكرة القصيدة المتفوقة إلى الفكر النقدية القديمة ولعلّ اختيار المعلّقات نتاج هذا التصور. وقد اعتمد ابن سلاّم مبدأ القصيدة المتفوقة في اختياره لمجموعة من الشعراء الجاهليين الذين أنزلهم الطبقة السادسة، ويقول في ذلك:" أربعة رهط لكل واحد منهم واحدة. وهؤلاء الأربعة هم: عمرو بن كلثوم، وقصيدته هي المعلقة التي أولها:

ألا هبّي بصَحْنِك فاصْبحينا ولا تُبْقي خمور الأنْدَرينا

والحارث بن حلّزة اليشكري، وقصيدته هي المعلقة التي أولها:

آذَنَتْنا بِبَيْنِها أسماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنْه الثَّواءُ

وعنترة بن شداد، وقصيدته هي المعلقة التي أوّلها:

يا دارَ عَبلةَ بالجِواء تَكلَّمي وعِمي صباحاً دارَ عبلةَ واسلمي

وسُويدُ بن أبي كاهل وقصيدته التي أوّلها:

بسَطَت رابعةُ الحبلَ لنا فَمدَدْنا الحبْلَ منها ما اتَّسَعْ

وتعدّ هذه المعايير أبرز الأسس الفنية التي اعتمدها ابن سلاّم الجمحي في طبقاته، وفي إنزال الشعراء منازلهم.